الفصل الحادي والعشرون

مركب إسماعيل

يتخذ مركب إسماعيل بالنسبة للبدو في الجزيرة العربية أهمية كأهمية تمثال آلهة الحكمة بالنسبة لأهل طروادة، فكلهم يعتقدون أن امتلاك هذا الرمز يعني الأمان والقوة للقبيلة التي تملكه، بينما يعني فقدانه الكارثة بالنسبة للقبيلة وبالتالي تشتتها. امتلك الرولة المركب لمدة حوالي قرن ونصف دون انقطاع، ولايزال منظر مركب إسماعيل حتى اليوم والعذراء المختارة االجالسة عليه في أوقات الحرب تدفعهم إلى البطولات العظيمة. الفرسان يؤلفون حرس الشرف له، هم صفوة رجال القبيلة ويحافظون على سلامته بحياتهم وأجسامهم. وهم دون سواهم أبطال الجزيرة العربية.

قبل أن ينقل المركب إلى الرولة كان في حوزة العمارات، وبالتحديد كان في حوزة عائلة ابن هذّال حتى عام ٧٩٣. في تلك السنة شنت عشيرة ولد علي (من حلفاء الرولة) الحرب على العمارات. واشترك في تلك الحملة **جدوة بن مبادر**، وهو من قبيلة الرولة، بزيارة ولد علي في تلك الأثناء. وفي أوج المعركة ـ كما تقول القصة ـ بعد استئذان زعيم القبيلة حمل جدوة على الفرسان الذين يحرسون المركب (وعذراء العمارات فوقه) وشق طريقه منفرداً.

obeikandl.com

وبضربة من سيفه قطع إحدى سيقان الجمل الذي يحمل رمز القبيلة وأقعده على الأرض. وبسقوط الراية المقدسة المفاجئ انهارت مقاومة العمارات أيضاً وأصيبوا بهزيمة منكرة بعد أن اعتراهم الهلع.

وعلى أرض المعركة وجد المنتصرون جدوة قتيلاً بكمين نصبه له أحد المشاة وكذلك جميلة (عذراء العمارات الجالسة على العرش) التي طعنت نفسها حتى الموت كي لا تعيش عار هزيمة قبيلتها. ويدعي أبناء قبيلة ولد علي حتى اليوم أن جدوة كان عشيق جميلة، لأنهم يقولون إن جسميهما وجدا جنباً إلى جنب تحت المركب المنهار، وأن يدي جميلة ما زالت مطبقة على مقبض خنجرها، بينما صافحت يدها الأخرى يد جدوة.

بعد هزيمة العمارات أهدى شيخ ولد علي المركب ومعه سيف جدوة الشهير إلى قبيلة الرولة، لأن جدوة الرولي هو الذي أسقط المركب، وبالتالي تسبّب بانتصار ولد علي. ومنذ ذلك التاريخ بقي هذا الرمز المقدس في أيدي عائلة الشعلان، وصاحب الرولة في كل حروبها الظافرة رمزاً لمكانتها المتميزة بين قبائل الجزيرة العربية.

وهناك أسطورة أخرى قديمة حول سيف جدوة (ذو المياه) رواها لي الأمير نوري الشعلان في القرن الخامس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، عندما كان البدو العنزة يرعون جمالهم عند جبل بدر جنوب تيماء، وقع الحدث على طريق الحج من دمشق إلى مكة. كان جندة بن مبادر أحد أجداد جدوة يسافر مع عشيرته باتجاه خيبر بحثاً عن الديرة قرب الجبل الأبيض في وادي الرقة. وفي ليلة هادئة مظلمة وبينما تراقصت النيران الحمراء في الخيام امتلأ الجو فجأة بهدير رهيب، وشقّ هزيع الرعد القوي عنان السماء، واهتزت الأرض وتمايلت، وبدا كأن العالم كله يتهاوى. وصحت الأحياء كلها في رعب قاتل، فتراكضت هنا وهناك، ومن وسط السماء المظلمة انبثق ضوء فوق الأرض المتراقصة ببريق متزايد سريع حتى ساوى في لحظة واحدة قوة ضياء شمس الظهيرة، وفاق حرارتها

وأعمى الرجال والحيوانات فخرّ الجميع أرضاً. انشقت الأرض وملأ الجو صوت فحيح صاخب يفوق الوصف وغطّى الأرض المنكوبة دخان كبريتي.

وعندما انبلج الصبح وجد الكثير من الناس أمواتاً متناثرة الأشلاء. أما المكان الذي سقط فيه النيزك فقد تحول إلى حفرة تشبه فوهة البركان. بالإضافة إلى ذلك فقد اختفى عدد من الرجال والجمال في باطن الأرض دون أثر، ودفنوا تحت الرمال والحجارة.

وأمام الخيمة الممزقة والمحترقة جزئياً مات جندة بن مبادر وفرسه الحربية واثنان من جماله. ومن طرفي الصحراء المتعاكسين (من حلب في الشمال والطائف قرب مكة في الجنوب) وصلت التقارير حول هذا النيزك البراق وصوته المخيف، كما سمع أيضاً صوت ارتطامه بالأرض.

بعد بضع سنوات قام بعض البدو الجريئين بفحص الحفرة الأرضية وتوسعتها وتنظيفها فاكتشفوا بكثير من الفرح أن الحفرة تمتلئ بالماء فسموها بير الرعد. أثناء الفحص وجد هؤلاء الرجال قطعاً صغيرة من «رسول السماء» الممزق. أخذ أحد أبناء ابن مبادر قطعة النيزك وصنع منها سيفاً طوله ٧٥ سم. ولا يزال حتى اليوم يبرق (كما فعل في حينه) كما لو كان جديداً وبلون مائل إلى الزرقة دون أية بقعة صدأ. وعلى طول نصله الثمين الخفيف كالريشة علامات فضية متماوجة. وقام أحد الصاغة في دمشق بصنع مقبض وقراب جميلين له، كما قام فنان آخر بحفر بعض الحروف العربية على النصل وملأها بالذهب.

وبهذا المعنى يكون سيف جندة وجدوة بحق هدية السماء، ولهذا يسمونه أيضاً «سيف الله» و«ذو المياه».

وعندما دخل الرولة مراعي **الفدعان والسبع** الخصيبة في نهاية فترة المجاعة المحزنة أهداني الأمير نوري الشعلان هذا السيف تذكاراً لتلك المغامرة ودوري فيها. ولا حاجة بي للقول بأني أثمن هذا السيف غالياً جداً.

* * *